

الطبيعة الساكنة والمتحركة في الشعر العربي الجاهلي  
دراسة تحليلية لبعض النماذج

The static and moving nature in pre-Islamic Arabic poetry  
An analytical study of some models

فواز معمرى<sup>1</sup>

جامعة الحاج لخضر باتنة 1

مخبر الشعرية قسم اللغة والادب العربي جامعة الحاج لخضر باتنة 1

maamerifaouaz@gmail.com

تاريخ الوصول 2020/03/31 القبول 2023/02/18 النشر على الخط 2023/03/15

Received 31/03/2020 Accepted 18/02/2023 Published online 15/03/2023

ملخص:

لقد رسم شعراء العصر الجاهلي صورهم الشعرية من الطبيعة (الساكنة و المتحركة) مشكلين من خلالها أجمل اللوحات فاختاروها موطناً لإبداعاتهم وملجأً لأحلامهم، فلا نكاد نجد شاعراً إلا ويذكر الطبيعة في قصائده، فكانت مصدراً أساسياً استقى واستفاد منه الشاعر العربي في العديد من إبداعاته الفنية، فراح يتغنى بها وبمظاهرها البيئية، فأفرد لها قصائد شعرية مستقلة ومقطوعات خاصة، تستوعب طاقته التصورية وخياله الشعري. من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة للإجابة عن إشكالية رئيسة مفاده: ما مدى تأثير الطبيعة الساكنة والمتحركة على حياة الشاعر العربي الجاهلي ؟ ولمعالجة هذه الإشكالية تم تتبع المنهج التحليلي.

الكلمات المفتاحية: الشعر، الطبيعة، صورة، متحركة، ساكنة، بيئة، متخيل.

**Abstract:**

The poets of the pre-Islamic era drew their poetic images from nature (static and moving) forming through it the most beautiful paintings, so they chose it as a home for their creativity and a refuge for their dreams. We hardly find a poet who does not mention nature in his poems. He sings about it and its environmental manifestations, so he dedicates independent poems and special pieces to it, which absorb his visual energy and his poetic imagination. From this point of view, this study came to answer a major problem: What is the extent of the impact of static and moving nature on the life of the Arab poet? To address this problem, the analytical method was followed.

**Keywords:** Poetry, portrait, animation, static, environment.

**1. مقدمة:**

الشعر في حقيقته هو نتاج الفكر والحس الإنساني، ولا بد للبيئة أن تترك آثارها على طبيعة الإنسان ولغته. فالبيئة تؤثر بشكل مباشر على نفس الفنان، وعلى مادة فنه (اللغة) فاللغة بكل ما ينتج عنها من ألفاظ ومعان وتراكيب وصور وأساليب مختلفة تعطي العمل الفني الإبداعي سمة، وهوية خاصة مميزة له عن غيره من الأعمال. كما أن الفن بعامة والشعر بخاصة، عبارة عن ظاهرة جمالية تنتج عن انفعال الإنسان بالبيئة الطبيعية. فالفن، سواء أكان شعراً أم نثراً، هو تعبير وتجسيد لهموم الإنسان وآلامه وأفراحه، هذه الهوم والأفراح تظهر في صور جمالية فنية يبدعها الفنان وينسجها من خيوط هذه المعاناة التي يعيشها في بيئته الطبيعية التي تؤثر فيه ويتفاعل مع مكوناتها ومعطياتها بحيث تصبح جزءاً من كيانه وروحه ووجوده. فالطبيعة بما تحمله من مضامين، ودلالات جاءت ذات أثر بارز في القصيدة العربية، سواء كان ذلك من الناحية الفنية، أو اللغوية، حتى طال ذلك الأثر بنية القصيدة بشكل عام، ولا غرو في ذلك فقد امتزجت حياة الشاعر العربي مع الطبيعة بنوعيتها الساكنة والمتحركة، وتفاعل معها كيانه الوجودي حتى أصبحت ظاهرة بارزة في نتاجه الشعري. فماذا نعني بالطبيعة الساكنة والمتحركة؟ وما مدى تأثيرهما على حياة الشاعر العربي؟

**2. الطبيعة والشعر الجاهلي**

بدأت صورة الطبيعة من خلال الشعر الجاهلي جلية محملة بكثير من التفاصيل والملاحم الدقيقة التي تركت أثراً بارزاً في نفوس الشعراء آنذاك، لا سيما أن الطبيعة كانت الشاهد الذي سجّل غزواتهم وانتصاراتهم ورحلاتهم المتعددة وغرامياتهم، فكانت المحيط الواسع والملجأ الذي يلتمس فيه الشاعر الأمان والأمان.

فقد كان الشعراء أكثر قرباً في واقعهم من الطبيعة وأشد التصاقاً بها، فقد حكمت عليهم ظروف حياتهم بالاستقرار في أرجائها المطلقة، واتخاذها في ذاتها مسكناً وملجأً لهم صيفاً وشتاءً، وليلاً ونهاراً، لذلك اتخذ الشاعر من أرض الصحراء بيتاً له ومن سمائها سقفاً يؤويه. وقد بدأت صورة الطبيعة من خلال الشعر الجاهلي على الرغم من وحشتها الصحراوية وافتقارها لمظاهر الجمال البيئي من زهر وخضرة، ذات امتيازات جمالية خاصة مكنت أهلها من التألف معها والتمازج الحيوي الذي جعلها تنعكس في ملاحظتهم وطباعهم، ولغتهم التي اكتسبت خصوصية ملحوظة في معظم الألفاظ التي تلاشت بتلاشي مظاهر تلك الطبيعة الجاهلية، وظلت مخددة في آفاق الشعر الجاهلي، وذلك من خلال قدرة الشاعر الجاهلي على تطويع مظاهر الطبيعة وحسن استغلال صورها وأشكالها حسب موقفه النفسي وحسب طبيعة الأحداث، فنتج صوراً بديعة، تكاد تكون لوحات فنية أبدع في رسمها، وأضفى خبراته عليها.

**3. الطبيعة الساكنة وتأثيرها على حياة الشاعر العربي:**

ويقصد بها الطبيعة الأرضية كالروض والجبال والسهول والوديان والأنهار، والطبيعة العلوية كالمطر والبرق وفصول السنة، فهي « تشمل أجرام السماء، ونجومها وكواكبها»<sup>1</sup> وتتضح صورة الطبيعة الساكنة أكثر في قصائد الشاعر العربي القديم، وذلك من خلال توظيفه ألفاظاً كثيرة ذات دلالات متنوعة، جسد من خلالها رؤيته الفنية من جهة، وطبيعة حياته من جهة أخرى. وما يدل على تلك العلاقة القوية بين الشاعر وطبيعته ما يمثله قول الأعشى:

«ما رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ \* \* \* خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلٌ  
يُضَاكِحُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوَكْبٌ شَرَقٌ \* \* \* مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ»<sup>2</sup>

فالشاعر ارتقى بالروضة في هذه الأبيات من مجرد فضاء أو حيز مادي إلى فضاء إنساني جميل ينبض بالحب والحركة، فانعكست صورة الطبيعة (الروضة) على نفسية الشاعر، فراح يجول بخياله فيما تحمله الصورة من مناظر حية وجميلة، كون من خلالها علاقة حميمة مع البيئة المحاط به، وهذا ما جسده كلماته (رياض الحزن معشبة، خضراء جاد عليها مسبل)، فتلك الرياض أماكن «واسعة مطمئنة يسيل إليها الماء فتنبت ضرباً من العشب»<sup>3</sup> فما تمثله تلك الرياض من ماء واخضرار وريحاً طيبة جعلت منها أماكن للاستقرار، والتمتع به، وبما فيه من أشجار وماء ونبات جعل المظاهر المشار إليها شديدة الألفة والحميمة.

وهذا امرؤ القيس يظهر حبه للطبيعة الساكنة من خلال معلقته، حيث ذكر فيها أماكن كثيرة من خلال تنقله، من مكان إلى آخر، فغدت تلك الأماكن جزءاً من حياته فانصهرت الطبيعة في حسه وشعوره وصراعه النفسي الدائم مع تلك الطبيعة، تعبر عن موقف موحد يقفه الشاعر تجاه الحياة والكون، فهو عندما يصف تلك الأماكن إنما يصف علاقته بالطبيعة، هذا الوصف الذي عبر الشاعر من خلاله «عن المشهد المحسوس، فإذا الطبيعة الجامدة حركة وحياة ونشاط وإذا الوجود يرمته كائن انساني حي قد يضحك أو يتألم أو يفرح أو يحزن»<sup>4</sup> فكان بذلك تعبير عن طبيعة واقعية خبرها وعاش. يقول امرؤ القيس:

«أصاح تَرَى بَرَقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ \* \* \* كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِيحْبِي مَكَلَّلٌ  
يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ \* \* \* أَمَالَ السَّلِيْطَ بِالذُّبَالِ الْمَفْتَلِ  
فَعَدْتُ لَهُ وَصْحْبِي بَيْنَ ضَارِحٍ \* \* \* وَبَيْنَ الْعُدَيْبِ بَعْدَ مَا مَثْمَلِي  
عَلَى قَطَنِ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ \* \* \* وَأَيْسَرُهُ عَلَى السَّتَارِ فَيَذْبُلُ»<sup>5</sup>

فما يلاحظ على هذه الأبيات أن الشاعر أعتمد على النزعة الحسية والشعورية في وصفه للطبيعة فهو يعبر عن موقفه النفسي إزاء العالم الخارجي، مبهور بما حملته الطبيعة من مناظر وظواهر، يريد أن يمتلك هذا العالم في نفسه ليستطيع بعدئذ تجسيده، كما يعرض لنا في هذا الوصف الطبيعة كما هي دون تعديل أو تحوير من الخيال، فجسد بذلك حضور الطبيعة الطاغية على نفسية

1 . عبد العظيم على قناوي: الوصف في الشعر العربي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1949، ص 224.

2 . الأعشى الكبير ميمون بن فيس: الديوان، مكتبة الاداب، مصر، دط، 1940، ص57.

3 . شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، لبنان، دط، 1997، ص83.

4 . يحيى الشامي: أعلام الفكر العربي، زهير بن أبي سلمى، دار الفكر العربي بيروت، ط3، 2002، ص42.

5 . امرؤ القيس: الديوان، دار المعارف، بيروت، ط 2، 2004، ص63.65 .

الشاعر ووجدانه يلونها بمشاعره وانفعالاته، «فهي حزينة إذا كان حزينا، ومبتهجة إذا كان مبتهجا، فليس للطبيعة وحدها كيان في نفسه إلا بمقدار ما تنعكس على صفحة إحساسه»<sup>1</sup> فكان اندماج الشاعر مع الطبيعة، فهي عالمه الفسيح الذي ينطلق فيه ويقتحم أهوالها ومخاطرها.

فمن خلال الصيد والمطر والسييل، وكل ما يرتبط بالطبيعة عبر عن تجارب صادقة مر بها الشاعر في حياته، وأثناء تجواله وضربه فيها، فهي الأرض «الفسيحة الواسعة التي لا تقيدتها قيود، ولا تحد من حريتها حدود، ولا يستطيع قانون أن يخترق نطاقها ليفرض سلطانه عليها، مجالا لا حدود له»<sup>2</sup>، ولعل هذا التعلق كان نابعا من إحساس الشاعر بروعة الطبيعة من جهة، وتجربته الشخصية ورؤيته المباشرة لها من جهة أخرى، فتأثره بمظاهر الطبيعة التي عاش في أحضانها، و خبر روعة مشاهدتها بتجربته المباشرة، جعل منها مختبرا حيا لتجليات إحساسه بقيمة الجمال.

فالشاعر العربي يعد الطبيعة «مستودعا للأفكار والمشاعر التي تنشأ بين الإنسان ومحيطه»<sup>3</sup>، وهذا ما يفسر عناية الشعراء الجاهليين بمظاهر طبيعية من دون غيرها لارتباطها المباشر بشؤونهم ونفعهم الجمالي بها، الأمر الذي شكل لوحة فنية مثلت نضجا فنيا جسد القيمة الجمالية للطبيعة، ولاسيما تلك التي تمثلت في وصف السحاب والناقة والفرس والوديان والجبال، فشكّلوا أحاسيسهم الجمالية بمظاهرها، وربطوها بعلاقة جمالية نفعية وظيفية وحملوها بتجاربهم الجمالية والنفسية فأسهّموا بتفريد لوحاتهم على ما في ظواهرها من تشابه وتقارب، وذلك وفق الإحساس الجمالي بتلك المظاهر.

ونجد أن امتداد الطبيعة الساكنة هو ما أمد خيال الشاعر العربي بالمادة التي صنع منها صورته وأحيلته ومعانيه في جمع أغراض شعره، فأعترته الواقعية، وطبعت فيه الصراحة والوضوح والصفاء والقوة والجمال وحب الأرض وملأت جوانب خياله وسمعته وفؤاده وبصره فكراً ودهاءً، فاستخرج منها الأشكال التي «رأها وتأمّلها وخلقها عن طريق تصورات انفعالية»<sup>4</sup>.

فاستطاع الشاعر العربي أن يصور الطبيعة في كل مراحلها ونظمها، وأن يربط بين الجزئيات المكونة لمفرداتها وتكاملها وينظر للكون نظرة شمولية، ويحس بوحدة الحياة وتكاملها؛ لأنه واسع الفكر والرؤية، وتمثل ذلك في أشعاره. وفي هذا الصدد يصف الأعشى جزئية من صورة الصحراء قائلاً:

«وَبَلَدَةٍ يَرْهَبُ الْجَوَابُ دُجَلْتَهَا \*\*\* حَتَّى تَرَاهُ عَلَيَّهَا يَبْتَغِي الشَّيْعَا

لَا يَسْمَعُ الْمَرْءُ فِيهِ مَا يُؤْنِسُهُ \*\*\* بِاللَّيْلِ إِلَّا نَيْمَ الْبُومِ وَالضُّوْعَا

كَلَّفْتُ مَجْهَلُوهَا نَفْسِي وَشَايَعَنِي \*\*\* هَمِّي عَلَيَّهَا إِذَا مَا أُلْهَا لَمَعَا»<sup>5</sup>

هذه الصحراء القاحلة التي وجد نفسه ملقى فيها رغماً عنه؛ فقد «أقفرت من كل شيء لا يؤنس سالكها في الليل إلا نعيق البوم، وصوت طائر الليل الأسود»<sup>1</sup>، ففي هذه المسالك كلف نفسه السير واقتحام مجاهلها.

1. صلاح عبد الصبور: قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار النجاح، بيروت، ط1، 1973، ص65.

2. يوسف خليف الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب، مصر، دط، (دت)، ص49.

3. حسين نصار: في الشعر العربي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص34.

4. نفس المرجع، ص237.

5. الأعشى الكبير ميمون بن فيس: الديوان، ص103.

وهكذا وجدنا أن الطبيعة الصحراوية أسبغت وجودها واسمها على وجود العربي فسمته باسمها وخلعت عليه وجودها، لذلك أودع الشاعر الجاهلي كل حياته ووجوده، وأحلامه وأحزانه وجمال في عالم الطبيعة، هذه الطبيعة التي وضعت لبنة حب التحدي وإثبات الذات، في حياة الشاعر فعلى الرغم من إحساسه العميق بالحقيقة السرمودية التي تتجسد في نفسه أولاً، والطبيعة من حوله ثانياً، فهو الهالك الفاني والطبيعة الثابتة اللابسة لثوب البقاء والخلود، فجاءت براعة المزج والدمج بين «الأحاسيس النفسية ومناظر الطبيعة جعلت معظم الشعر دافق تدفق الطبيعة»<sup>2</sup>

يقول الشاعر:

«وَمَا حَنُوا عَلَيَّ مَنْ خَلَّفُوهُ \*\*\* بِوَادِي الرَّمْلِ مُنْطَرِحاً جَدِيلاً  
بِحَنِّ صَبَابَةٍ وَيَهِيمٍ وَجَدّاً \*\*\* إِلَيْهِمْ كَلَّمَا سَأَفُوا الحُمُولاً»<sup>3</sup>

ففرق الأحبة والبعد عنهم جعل المكان (الوادي) يسهم بمدلولاته في تحريك إحساس، ومشاعر الشاعر الذي أصبح وحيداً في هذا الوادي، هذا الأخير الذي أعطى بعداً «سيمولوجيا لا يتوقف حضوره على المستوى الحسي فحسب، وإنما يتغلغل في عمق الكائن الحي»<sup>4</sup>

من هنا أصبحت الطبيعة الساكنة عاملاً من العوامل المسببة في بعث الذكريات والأحزان في نفسية الشاعر، فظهرت علامات الحزن في النص (وما حنوا على من خلفوه.... يحن صباية ويهيم وجداً) حملت مدلول نفسي عبر الشاعر به بواسطة التصوير المتخيل لما حدث لحظة الوقوف في الوادي.

وعلى الرغم من سكون مظاهر الطبيعة الجامدة إلا أنها لعبت دوراً كبيراً في تحريك وتفعيل نفسية الشاعر. يقول عنتر:

«فَقَلْبِي هَائِمٌ فِي كُـلِّ أَرْضٍ \*\*\* يُقْبَلُ إِثْرَ أَخْفَافِ الجِمَالِ  
وَجِسْمِي فِي جِبَالِ الرَّمْلِ مُلْقَى \*\*\* خَيَالٌ يَرْتَجِي طَيْفَ الخِيَالِ»<sup>5</sup>

يبدأ الشاعر بوصف حالته النفسية، فقلبه هائم في كل مكان، وجسمه ملقى في رمال الجبال نتيجة الفراق والبعد عن من يحب؛ فهو ضائع يشكو الحنين والشوق. فلم يجد الشاعر في ذلك متنفساً سوى الأرض التي كان فيها، فأفرغ فيه مشاعره الملتهية والهائمة، وارتفعت حسية المكان لتواكب انفعال الشاعر، لتضفي بذلك على الوجود «صفات ومعاني روحية تؤثر في النفس»<sup>6</sup> وقيمة جمالية، فجاء التعبير متواصلًا مع تلك الأرض، وما تحمله من مظاهر الحياة. يقول كشاحم في ديوانه<sup>7</sup>:

«وَكأنَّ الحُطُوطَ فِيهَا رِيَاضٌ \*\*\* شَاكَرَاتٌ صَنِيعَةٌ الأَنْوَاءِ»

<sup>1</sup> . المصدر نفسه، ص104.

<sup>2</sup> . محمد على أبو حمدة: في العبور الحضاري للامية الشنفرى، دار عمار، مصر، دط، 2001، ص13.

<sup>3</sup> . الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتر، دار الكتاب العربي، لبنان، ط1، 1992، ص114.

<sup>4</sup> . خالد حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة، مؤسسة اليمامة، الرياض، السعودية، ط1، 2000، ص60.

<sup>5</sup> . الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتر، ص103.

<sup>6</sup> . أحمد أمين: النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، دط، 1963، ص57.

<sup>7</sup> . محمود بن الحسين كشاحم: الديوان. مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، 2009، ص7.

يشخص الشاعر في هذه الأبيات عناصر الطبيعة، واصفاً إياها بالروضة الخضراء التي تنبت الزهور وقت الربيع، هذا المنظر الذي أثار في الشاعر حسياً ومعنوياً، فراح يتفاعل معه. فأنت الصورة في هذا البيت لدلالة والتعبير عما يختلج في نفس الشاعر من مشاعر وأحاسيس، أخذت دلالاتها « من السياق المشحون بشعور الشاعر وعواطفه»<sup>1</sup>، وهذا ما أعطى لصورة طابعاً مميزاً، وهو الطابع المعنوي. فالرياض احتلت مكانة مميزة في نفسية الشاعر العربي، وهذا ما جعل البعض يهيم في وصفها. يقول الأعشى:

« ما روضةٌ من رياض الحزن مُعشبةٌ \*\*\*  
خضراءٌ جادٌ عليها مُسبلٌ هطلٌ  
يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ \*\*\*  
مؤزَّرٌ بعميمِ النَّبتِ مُكتهلٌ»<sup>2</sup>

أخذ الشاعر من الطبيعة صورة عبر بها عن مدى جمال تلك الأرض، فهي خضراء رائحتها طيبة أزهرت فيها الورد جاد عليها المطر، وأشرقت الشمس عليها، والصورة التي أخذها من هذا المكان تمثلت فيما أعطاه الشاعر من صفات إنسانية للنبات، حيث شبهه بالشخص الذي لبس إزاراً، وكانت تكسوه حلة جميلة، كما شبه بربووز النبات، وانفتاحه على الشمس بالإنسان الضاحك، فصفة الضحك لا تكون للنبات بل للإنسان، فالشاعر هنا «أحاط في أوصافه بالظواهر البيئية التي كان يعيش فيها فوصف الصحراء وما فيها من جماد وحيوان، وما يعترئها من رياح وسحب، وأمطار وظواهر المناخ المختلفة، وغير ذلك، بحيث يمكن القول معه بأن الشاعر الجاهلي قد صور البيئة العربية تصويراً عاماً، استوعب فيه جميع مظاهر الحياة في ذلك العصر»<sup>3</sup> هذا عن وصف الطبيعة الأرضية أما عن الطبيعة العلوية، فهناك من راح يصف ويراقب السحاب، كقول الأعشى:

«يامن يرى عارضاً قد بث أرقبه \*\*\*  
كأتما البرق في حافاتِه الشعل  
له رداً وجوز مفاًم عمل \*\*\*  
منطلق بسجال الماء مُتصل  
لم يلهني اللهو عنه حين أرقبه \*\*\*  
ولا اللذاذة من كأس ولا الكسل  
فقلت للشرب في دُرني وقد ثملوا \*\*\*  
شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل»<sup>4</sup>

يراقب الشاعر في هذا المكان السحاب، مصوراً من خلاله لمعان البرق الذي يشبه في لمعانه وضيائه الشعل، ثم ينتقل في البيت الثاني ليعطي صورة أخرى لسحاب قائلاً: (له رداً وجوز مفاًم عمل منطلق بسجال الماء مُتصل)، فهذا السحاب - في نظره - متصل الأجزاء يصل بعضها البعض وسطه محمل بالماء هذا التأثير بالمنظر المكاني جعل الشاعر يستدعي أصحابه للنظر لهذا السحاب، وبذلك يكون الشاعر هنا قد خلق صورة حية ولوحة رسمها من خلال هذا المكان. فالطبيعة «تحاصر الوعي دوماً، بحيث تغدو الصور تذهنات أو تمثلات الوعي لتلك الطبيعة في كثير من الأحيان مثل هذه الصور تجعل من الطبيعة إحساساً في ذاتنا يسيطر هيمنتها علينا، ويستثير فينا أخيلة تداعب النفس مداعبة النسيم»<sup>5</sup>

1 . أسعد عبد الكريم: الصورة في شعر لظفي جعفر أمان، دار الثقافة، الشارقة، ط1، 2003، ص38.

2 . الأعشى الكبير ميمون بن فيس: الديوان، ص57.

3 . علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، دار غريب، القاهرة، ط1، 1999، ص345.

4 . الأعشى الكبير ميمون بن فيس: الديوان، ص57.

5 . اليوسف يوسف: مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، بيروت، ط2، 1985، ص320.

لذلك نجد أن صور الشاعر العربي مأخوذة من بيئته ومن واقعه، أو من الموروث المختزن في ذاكرة اللاشعور، أو من عناصر الكون ومظاهر الطبيعة من حوله، كما تمثلتها نفسه الشاعرة التي امتزجت بها. فالشاعر يتخذ من الطبيعة مادته ليصنع منها صوراً تنبع من عاطفته وخلجات نفسه «فهو يصور الليل إذا سحى والنجم إذا هوى والموج حين يتلاطم والرمل وهو متراكم والبدر عندما يتألق والصبح حينما يشرق بل يصف مالا يدركه، ويدركه، فيصف الحس ويصور الخاطر ويخرج من هذه المعنويات صوراً فتانة يدركها الحس ويتأملها الشعور؛ فكأنك ترى الكبد المقروحة، أو القلب الخفاق، أو النفس الهاجسة، أو الطيف الزائر أو الخيال العابر مما لا تدركه إلا النفوس الجياشة بالشعور»<sup>1</sup>

#### 4. الطبيعة المتحركة وتأثيرها على حياة الشاعر العربي:

تتمثل الطبيعة المتحركة في الظواهر المتحركة أي كل ما هو حي وهو «كل ما يجري فيه ماء الحياة وينبض بالحركة من حيوان أنيس كالناقة والفرس، والكلب والمعز والغنم أو حيوان آبد كالأسد والضبع، والذئب والثعلب، والحشرات والهوم»<sup>2</sup> فالشاعر أستطاع أن يعبر عن الطبيعة الحية أصدق التعبير، متأثراً بما يجري من حوله من ظواهر طبيعية حية، ولتوضيح ذلك نقف أمام نماذج وصفية للطبيعة الحية. يقول امرؤ القيس:

«فغن لنا سراب كأن نعاجه \*\*\* عذارى دوارٍ في ملاءٍ مذيّل

فأدبرن كالجزع المفصل بينه \*\*\* بجيد معمٍ في العشيّة مخول

فألحقنا بالهاديات ودونهُ \*\*\* جواحرها في صرةٍ لم تزيّل

فعداى عداً بين ثورةٍ ونعجةٍ \*\*\* دراكاً ولم يتضح بماءٍ فيغسل

فظل طهاة اللحم من بين منضجٍ \*\*\* صفيف شواءٍ أو قدير معجل»<sup>3</sup>

الشاعر يفتخر بنفسه وفرسه في هذا المكان؛ إذ يصور لنا في هذا المشهد الطبيعي كيف يصطاد فريسته فهو مثل الصياد الشره الذي ينشب نبله في صيده فيورده مورد الهلاك، فتلك الخيل تتفوق في سرعتها على بقر الوحش، والضأن؛ إذ لحقت هذه الفرس بتلك الحيوانات وجاوزتهم، حتى تمكن الشاعر من إدراك والحصول على صيده.

لذلك كان الصراع في هذا المشهد الطبيعي قائم على أساس السرعة والقوة، فحصانه جواد صيد وليس جواد قتال فهو يعادي النعجة والثور ويظفر بهما، والصراع هنا من أجل الحياة، فحياة الفريسة تعتمد على السرعة بالدرجة الأولى، فإذا استطاعت أن تسبق الجواد بقدرتها الفائقة على العدو نجت وفازت وإلا كان نصيبها الموت. فمشاهدات امرئ القيس الواقعية للحياة بسبب كثرة أسفاره، وتنقله جعلته يدرك كيف أن الحيوانات القوية تفوز بالحيوانات الضعيفة، وقد مارس هذا الفعل عندما كان يحتاج إلى الطعام لندمائه، كما أن حبه لحصانه، المنيع الذي لا يفارقه أبداً يجعله يقف إلى جانب فوز الحصان في هذا الصراع ما دام الحصان

<sup>1</sup> . عبد العظيم على قناوي: الوصف في الشعر العربي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1949، ص48. «وَحَزَقِي تَصِيحُ الهَامِ فِيهِ مَعَ الصَّدَى \*\*\* حَوْفٍ إِذَا مَا حَنَّهُ اللَّيْلُ مَرْهُوبٍ

<sup>2</sup> . المرجع نفسه، ص45. فَطَعْتُ بَصَهْبَاءِ السَّرَاةِ شِمْلَةً \*\*\* تَرُلُ الْوَلَايَا عَرْنَ جَوَانِبِ مَكْرُوبٍ»

<sup>3</sup> . امرؤ القيس: الديوان، ص(60-62).

مثله هو، فهو عندما يريد الفوز للحصان في هذا الصراع إنما ينقل هذا الفوز لنفسه؛ لأنه دائم الركوب على ظهره في الصيد فهو والحصان واحد. يقول عبيد الأبرص في هذا المعنى:<sup>1</sup>

وخرق تصيح الهام فيه مع الصدى \*\*\* مخوف إذا ما جنّه الليل مرهوب

قطعت بصهباء السراة شملة \*\*\* تزلّ الملايا عن جوانب مكروب

الشاعر يصف لنا سيره مع ناقته في الصحراء لا يسمع إلا صوت البوم الذي ينقع فيها فالناقة والبوم كانا حاضرين مع الشاعر في تنقله، فكان حضورهما مميزاً في الشعر الجاهلي، سواء أكان ذلك في المعلقات أم في غيرها من النصوص الشعرية. لذا نجد أن حضور الطبيعة الحية في حياة الشاعر له طابع نفسي يدل على الصمود والتحدي والعز والشموخ وكلها دلالات كان يسعى الشاعر إلى الاتصاف بها من أجل إثبات ذاته أمام جبروت الطبيعة القاهرة له، وبذلك ولدت صورة الطبيعة الحية في نفس الشاعر الجاهلي صورة الخلود التي كان يأمل في امتلاكها، ولكنه كان يدرك من جهة أخرى أن ذلك طموح غير مُدرك.

يتضح لنا أن الشاعر من خلال هذا المشهد الطبيعي الحي، ومسرح أحداثه عبر لنا عن نفسه وحياته التي عرضها في لوحة رسمها من خلال تجربته في الطبيعة. يقول أبو الوليد الأشبيلي في ديوانه البديع في وصف الربيع واصفاً لنا صورة الطير:

«والطيرُ في أيكها مغرّدة \*\*\* كأثما في منابرٍ تحطّطُ

أعجّب بها من نواطق خرّس \*\*\* تُوجزُ حيناً وتارة تُسهبُ

تُفهمني عُجمة بألسنها \*\*\* معنى الكلام المبين المعرب»<sup>2</sup>

الشاعر في هذه الأبيات يصف طيراً يزقزق على أغصان الأشجار، وكأنه في منابر الخطب أعجب به كل من سمع صوته، وهذا ضرب من التصور المتكامل الذي تتفاعل فيه عناصر الطبيعة لتعطي لنا صورة تجتمع فيها دواعي التأمل، واللذة والمتعة والراحة التي ترتاح لها النفس. فكان الطير لغة السلام ورمزاً يدل على الجمال. وقد كان عند البعض رمزاً للعزة والقوة كقول الشاعر:

«يُمَدُّ مَتْنَيْنِ امْتِدَاداً كَمَا \*\*\* قَرَنْتَ بِالطُّومَارِ طُومَارَا

يَفْتَقُ حَمَلًا قَيْنِ عَن مَقْلَةٍ \*\*\* يَخَالُهَا النَّاطِرُ دِينَارَا

صَادِقَةٌ تُعْمَلُ لِحِطًّا إِلَى \*\*\* مَقَاتِلِ الطَّائِرِ نَظًّا رَا»<sup>3</sup>

اهتمام الشاعر في هذه الأبيات بتفاصيل جسم طير البازي الذي يعد من رتبة الصقريات، وهو أحد الطيور الجارحة الماهرة في الصيد، فصور الشاعر أجزائه تصويراً حسيماً أظهر فيه جناحا هذا الطائر الواسعتين، كما شبه مقلتيه بالدينار الأصفر اللامع، وله ناظراً لا يخطأ فريسته حتى يفتك بها، يقول مصوراً طير الباشق:

«نُبْتُ عُنْدَكَ بَاشِقًا مَتَحِيَّرًا \*\*\* لِلصَّيْدِ لَمْ يَرِ مِثْلَهُ مِنْ بَاشِقِ

1 . عبيد بن الأبرص: الديوان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1994، 1، ص 35.

2 . اسماعيل أبو الوليد: في وصف الربيع، دار المداني، جدة، دط، 1987، ص 18.

3 . محمود بن الحسين كشاحم: الديوان، ص 444.



يَسْمُو فَيَخْفَى فِي الْهَوَاءِ وَيَنْكُفِي \*\*\* عَجَلًا فَيَنْقُضُ انْقِضَاضَ الطَّارِقِ  
 وَكَأَنَّ جُوحُوهُ وَرَيْشَ جَنَاحِهِ \*\*\* خُضْبًا بِنَفْسِ يَدِ الْفَتَاةِ الْعَاتِقِ  
 وَكَأَنَّهَا سَكَنَ الْهَوَى أَعْضَائُهُ \*\*\* فَأَعْرَهُنَّ نُحُولَ جِسْمِ الْعَاشِقِ  
 ذَا مُقْلَةٍ ذَهَبِيَّةٍ فِي هَامِيَةٍ \*\*\* مَحْفُوفَةٍ مَن رَيْشِهَا بِحَدَائِقِ  
 وَمَخَالِبٍ مِثْلِ الْأَهْلَةِ طَالِمًا \*\*\* أَدْمِينَ كَفَّ الْبَارِيزَارِ الْحَاذِقِ<sup>1</sup>

يضعنا الشاعر أمام صورة حسية مبرزا من خلالها الصفات والألوان التي يتميز بها طائر الباشق فهو يعلو في الهواء لا يرى له شيء وينقلب مسرعا لينقض على فريسته، مثل النجم الثاقب الذي سقط على الأرض محدثا فيها ثقباً كما أن أعضاء صدره وريش جناحيه مخصبتان كأن فتاة جميلة خصبتها، ولم يكتفي الشاعر بهذا الوصف فحسب بل راح يشبه نحول جسم الطائر مثل نحول جسم العاشق المحب، ذا مقلة صفراء ذهبية اللون، وقد زينت هامته بريش جميل وكأنها حدائق، ومخالبه مقوسة مثل الهلال سالت منها الدماء.

ومن أكثر الطيور ذكراً عند الشعراء طير الحمام، وذلك لما يوحي به من الجمال والألفة من جهة وما يحركه في نفس الشاعر من شجن وعاطفة من جهة أخرى. فراح الشعراء يتغنون به في أشعارهم. يقول أبو ذؤيب الهذلي:

«تَدْعُو الْحَمَامَةُ شَجْوَهَا فَتَهَيِّجَنِي وَبُرُوحٌ عَازِبٌ شَوْقِي الْمَتَاوَبِ»<sup>2</sup>

كما نجد من الشعراء من اتخذ من الحيوانات رمزاً وأمثلةً لوصف شعره وبيان مقصده من جهة وتدل على القوة والعزة والجمال من جهة أخرى. يقول الشاعر:

«تَصِفُ الْبَيْضَ وَالْجُفُونَ إِذَا مَا \*\*\* أَخْرَجْتَ أَلْسُنًا مِّنَ الْأَشْدَاقِ  
 وَكَأَنَّ الْمَهَا إِذَا مَا رَأَتْهَا \*\*\* حَدَرْتَ وَاسْتَكَاةً فِي وَثَاقِ»<sup>3</sup>

الشاعر هنا يصف الخيل ويشبها بالسيف المستلة من أعماده، فهي عنده أشد قوة وجمالاً من البقر الوحشي. كما يصف لنا محمود بن الحسين في ديوانه كشاحم الخيل من خلال وصف هيئتها، وسرعة حركتها يقول:

«وَسَابِحٌ نَهْدَ طِمْرٍ \*\*\* لَوْ سَابِقَ الرِّيحِ ظَهْرُ  
 أَوْ سَاحِلَ الْبَرَقِ فَخْرٍ \*\*\* أَوْ كَاثَرَ الْبَحْرِ كَثْرُ  
 أَوْ بَادَرَ السَّيْلِ بَدْرُ \*\*\* أَدْهَمُ كَاللَّيْلِ اعْتَكْرُ»<sup>4</sup>

<sup>1</sup> . المصدر نفسه ،ص291.

<sup>2</sup> . الهذلي أبو ذؤيب:الديوان، دار صادر، بيروت، دط ، 2003،ص26.

<sup>3</sup> . محمود بن الحسين كشاحم: الديوان،ص282.

<sup>4</sup> . المصدر نفسه،ص213.

فالشاعر في هذه الأبيات يصف لنا حركة وسرعة الخيل، تسبق البرق والريح، تندفع أقوى من أمواج البحر وأشد من تدفق السيل فهي خيل أصيلة تهرز ذنبها في السير وتختال، شديدة البأس وكأن سنابكها أحجار تفر من نار اشتعلت في جسمها. كما شبهها الشاعر بكلاب الصيد التي تفوق في سرعتها خفت ولمح البصر يقول في ذلك:

«وَحَبْدًا يَوْمَ بَكْرَنَابَةٍ \*\*\* وَالْفَجْرُ قَدْ أَسْفَرَ إِنْ سَفَارًا  
وَكَلْنَا مَبْتَهَجٌ مُمْتَطٍ \*\*\* طَرْفًا يَفُوتُ الطَّرْفَ حَطَّارًا  
كَأَنَّهُ مِنْ عَظْمٍ تَرَكِيْبِهِ \*\*\* صَوْرُهُ الْجَبَّارُ جَبَّارًا  
يَخْطُوا عَلَى صُمِّ إِذَا حَتَّهَا \*\*\* أَلْقَتْ عَلَى الْأَحْجَارِ أَحْجَارًا  
كَأَنَّا فِي وَفْتِ إِرْسَالِهِ \*\*\* نَضْرُمُ فِي أَغْطَافِهِ نَارًا  
يُحِبُّ حَبَابًا سَلُوقِيَّةً \*\*\* تَفُوتُ أَوْهَامًا وَأَبْصَارًا»<sup>1</sup>

فجاء اهتمام الشاعر العربي بالخيل، وكان اختياره الأولي له دون حيرة أو تردد لأنه يجد نفسه متمثل في ذات الخيل. فصورة الخيل عند العربي هي صورة الرجل النبيل الذي ملأته العزة والثقة، متفرداً نقياً من الاختلاط، صافياً من التمازج والتداخل.

## 5. خاتمة:

- انطلاقاً من مناقشتنا لأثر الطبيعة وعلاقتها بالشاعر الجاهلي وتحليلنا لها أفصحت دراستنا عن جملة من النتائج نلخصها في ما يلي:
- الصورة الطبيعية بنوعها (المتحركة والساكنة) كانت رؤية الشاعر العربي لطبيعته التي يعيش فيها على اختلاف مكوناتها.
  - تعدد الطبيعة مخزوناً يستمد منه الشاعر إلهامه ويتخذ صورها (الصامتة والمتحركة) رموزاً للاستناد عليها في شعره.
  - وصف الشاعر الطبيعة بأصدق التعبيرات والكلمات، فوصف الأشجار والأزهار والثمار والسماء والأنهار وتأمل شكلهم، وكذلك وصف الحيوانات والأسماك باختلاف أنواعهم، وألوانهم وتعجب من صفاتهم وطباعهم.
  - شكلت العناصر الطبيعية مصدر إلهام الكثير من الشعراء، فكانت تهوى إليها أفئدتهم مهما تفاوتت بيئاتهم، وتباينت ثقافتهم والإنسان بفطرته يفرغ إليها ليجد في أحضانها سلوته وعزاه.
  - ساهمت الطبيعة الساكنة في بعث الذكريات، وإحياء الماضي في نفسية الشاعر، وهو الأمر الذي جعله يصفها بشكل مادي بل أسقط عليها مشاعر الحزن والفرح والشوق والحنان، مسلطاً في ذلك الضوء على مواضع جمالها بما تحمله من أوراق خضراء وأغصان غضة وأزاهير ومياه جارية عذبة.
  - احتل وصف الحيوان (الحصان، الناقة، الطير... الخ) موقعا متميزا في معظم قصائد وشعر الشاعر العربي.

<sup>1</sup> . المصدر نفسه، ص243.

## 6. قائمة المصادر والمراجع:

## - المصادر:

- الأعرشى الكبير ميمون بن فيس: الديوان ، مكتبة الاداب، مصر، دط، 1940.
- امرؤ القيس : الديوان، دار المعارف، بيروت، ط، 2004، 2.
- اسماعيل أبو الوليد: في وصف الربيع ، دار المداني، جدة، دط، 1987، ص 18.
- الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتر، دار الكتاب العربي، لبنان، ط 1، 1992.
- عبيد بن الأبرص: الديوان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط، 1994، 1.
- محمود بن الحسين كشاجم: الديوان. مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، 2009.

## - المراجع:

- أحمد أمين: النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، دط، 1963.
- أسعد عبد الكريم: الصورة في شعر لطفي جعفر أمان، دار الثقافة، الشارقة، دط، 2003.
- حسين نصار: في الشعر العربي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، مصر، ط 1، 2001.
- حسنين حمد مصطفى على: استعادة المكان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، دط، 2003.
- خالد حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة، مؤسسة اليمامة، الرياض، السعودية، ط 1، 2000.
- صلاح عبد الصبور: قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار النجاح، بيروت، ط 1، 1973.
- علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، دار غريب، القاهرة، ط 1، 1999.
- عبد العظيم على قناوي: الوصف في الشعر العربي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 1، 1949.
- محمد على أبو حمده: في العبور الحضاري للامية الشنفرى، دار عمار، مصر، دط، 2001.
- يحيى الشامي: أعلام الفكر العربي، زهير بن أبي سلمى، دار الفكر العربي بيروت، ط، 2002.
- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب، مصر، دط، (دت).
- اليوسف يوسف: مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، بيروت، ط 2، 1985.

## - المعاجم:

- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، لبنان، دط، 1997.